

الانسان الكامل

للدكتور جواد علي

العربي^(١) المتوفى سنة (٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م) وعلى الأخص في كتبه ومؤلفاته . وتكاد الفكرة تكون محور تعاليمه والنقطة التي تدور حولها أبحاثه التصوفية^(٢) . وابن العربي هذا من الشخصيات الاسلامية العظيمة التي تنتمي إلى أرومة عربية عريقة في القدم . شخصية أثرت في الحياة الروحية الاسلامية تأثيراً عظيماً ولا سيما في الحياة العقلية للأتراك والفرس^(٣) . وتتصل آراء هذا الصوفي بعضها ببعض بصورة متسقة منتظمة اتصال الحلقة أو السلسلة على غموض بعض أفكاره وعويص معانيه ، وذلك أمر يقتضيه التصوف ذاته والموضوع الذي يدور حوله البحث . والظاهر أنه استمد آراءه في الانسان الكامل كما استمد ذلك سائر التصوفة من الصورة التي رسمها مثاليو المسلمين للتبني الكريم ، إذ ترى الصورة التي تصور بها التصوفة للانسان الكامل تسير جنباً لجنب مع الصورة التي يذكرها أصحاب السير للرسول نبينا العظيم^(٤)

استعمل محي الدين بن العربي هذا الاصطلاح كاستعمال أرسطو لكلمة « الانسان الأول »^(٥) أو استعمال فلاسفة اليونان لكلمة nous أو العقل ، أو كلمة arché تقريباً^(٦) ؛ استعمل هذا الاصطلاح ليدل على نسبة العقل الأول إلى العالم الكبير أو النفس الجزئية بالنسبة إلى النفس الكلية ليدل على فكرة طالما أفنى التصوفة أنفسهم شوقاً إليها إلا وهي فكرة المعرفة والتجلي عن طريق الوجد والفناء حتى يصل الانسان في النهاية إلى « الشجرة » وهي درجة الانسانية الكاملة التي لا إنسانية فوقها أبداً^(٧) . ونظراً لمكانة هذه الفكرة وما يحيط بها من إبهام وغموض ، تصور بها المسلمون لذلك بصور شتى وأشكال لا حد لها خرجت في كثير من الأحيان من علم الفلسفة الاسلامية إلى علم آخر أبعد من علم الاسلام والتصوف بدرجت

عرفت التصوفة الانسان الكامل بقولهم : هو الانسان الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية الكلية والجزئية ، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية ؛ فن حيث روحه كتاب عقلي مسمى بأم الكتاب ، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ ، ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات ؛ فهو الصحف الكريمة المرفوعة المطهرة التي لا يمسا ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية . فنسبة العقل الأول إلى العالم الكبير وحقيقته بعينها نسبة الروح الانساني إلى البدن وقواه . وإن النفس الكلية قلب العالم الكبير ، كما أن النفس الناطقة قلب الانسان ؛ ولذلك يسمى العالم بالانسان الكبير^(٨)

وتكاد يكون الانسان الكامل نفس « الانسان الأول » لدى أرسطو^(٩) ، أو « الحكيم » لدى أفلاطون ، أو « الانسان الفاضل » لدى الفارابي ، أو « الانسان المطلق » لدى جماعة إخوان الصفاء في البصرة^(١٠) ؛ وتكاد الفكرة تكون نفس فكرة « الانسان الذي لا إنسان فوقه » übermensch لدى هاينريش مولر من رجال أواخر القرن السابع عشر مبتدع هذه اللفظة لأول مرة^(١١) والشاعر الشهير جوته ، والفيلسوف نيتشه^(١٢) أو فكرة السوبرمان في اللغة الانكليزية Superman مع اختلاف بسيط سببه وجهة النظر والتفكير

وفكرة الانسان الكامل من الأفكار التي ترد على لسان المتصوفة كثيراً . وقد استعملها المتصوفون الشهير محي الدين بن

(١) راجع عنه الطبقات الكبرى لشعراي ج ١ ص ١٦٤

(٢) راجع مجلة الجمعية الشرقية الألمانية مجلد ٧٩ ص ٢٣٨ سنة ١٩٢٥

(٣) نفس المصدر

(٤) راجع : Tor Andrae die Person mahammeds in lehre

und glauben seiner gemeinde 1917 Kap. 6

(٥) Theol d. Arist o. p. 234 راجع

(٦) Max Horten phil d. Islam p. 347

و كذلك Goldzfer 42 f

(٧) راجع مصطلحات الصوفية وكتبهم أمثال : اصطلاحات الصوفية

الواردة في الفترحات للكية طبعه استانبول سنة ١٣٢٧

(٨) راجع تعريفات السيد الجرجاني طبعه استانبول سنة ١٣٢٧

ص ٢٥

(٩) راجع : Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen

Gesl Bd 79 1925 p. 241

(١٠) وكتاب أرسطو s. 234 Theol d. Arist o.

Max Horten Philo d. Islam p. 347

(١١) راجع كتاب Geistlichen Erquickst unden am Schmidt

Phil wort p. 679

(١٢) راجع من ذلك Berg der ub in der modernen literatur

18 97 R. m. meyer der über in der Zeitschrift f. wortforsch-
chung Bd 1 1900

Mikrokosmos ؛ فهو إذاً أكل البشر وهو الانسان الأول أو الانسان الكامل على الاطلاق

وقارب هذه النظرية ، على ما يقوله ماكس هورتن ، نظرية « الحروفية » وهم الذين يمثلون فلسفة العدد في الاسلام ، والذين ينتهون بحكم هذه التعاليم إلى الحلولية على نحو ما ينتهي إليه أمثال هؤلاء في الشرق والغرب ، مثل ما انتهى إليه نيقولا كوزانوس Nicolaus Cusanus^(١) الذي كان يقول بأن الواحد مرآة صافية للكل ، وأن العالم الأصغر هو العالم الأكبر ، فيه حل الواحد وفي كل شيء حل الله ، على نظرية ما في الجبة إلا الله . وهو في تعاليمه يشابه الفيلسوف العربي الكندي ويكاد يكون أحد تلاميذه أو أتباعه^(٢) . ومثل الفيلسوف لايبنتز Leibniz^(٣) في نظريته عن القدرات الروحية Monaden أو طاجينلا الايطالي المشهور والشاعر الشهير جوتة في منهج الجلول^(٤)

وهذا الإنسان الكامل الذي أبدع في وصفه التصوف ، هو إنسان خيالي روحاني ليس له مثيل بين سكان الأرض ، يجمع بين العالمين العالم الروحاني والعالم المادي ، لا يعبأ بهذا الكون ولا يقيم له وزناً ، وهو على طرفي قبيض مع « الإنسان الأعلى » ، أو السوبرمان الذي ابتدعه فلاسفة أوروبا المحدثون ، ويعتبرون بذلك الإنسان الذي يجذب هذا الكون ويقبضه ، يزيد السيطرة ويحترم مبدأ القوة ، لتناقض موجود في الأساس بين الفكرتين الشرقية الخيالية والغربية العملية الاكتشافية

وقد جمع عبد الكريم الجلي المتوفى عام ١٤١٠ م تقريباً آراء فلاسفة الاسلام في الانسان الكامل ، في كتاب سماه : « الانسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل » استفاد منه المستشرق الانكليزي نيكلسون كثيراً إذ ذكر وجهات نظر المسلمين في هذا الانسان أثناء بحثه عن التصوف الاسلامي فليرجع إليه^(٥) .

ميراد هي

وقد ظن المستشرق ماكس هورتن أن ذلك العالم هو العالم البراهمي وهو عالم غني بهذه الأفكار مملوء بهذه الآراء^(١) ، وظن المستشرق شيدر - وهو مستشرق يرجع أصل كل شيء في الحضارة الاسلامية إلى مصدر إيراني قديم - أن مصدر هذه الفكرة الآراء المانوية الإيرانية القديمة . يرى أن هذه الآراء أثرت في التصوف كما أثرت في فلسفة أبي بكر الرازي وإخوان الصفاء وناصر خسرو وغيرهم ، وذلك لوجود تشابه رآه هذا المستشرق بين فكرة الانسان الكامل وبين المعتقدات المانوية القديمة^(٢)

وترد نفس هذه الفكرة في فلسفة فيلون Philon^(٣) وفي الفلسفة البوذية حيث يكون بوذاً أكل مخلوقات الله ، فيه اجتمعت المتناقضات ، وفيه تم كل شيء ، فهو الانسان الكامل^(٤) وهو رمز وحدة الوجود ، فيه اجتمعت الروح بالمادة بصورة لا يتصورها إلا في الله ، لذلك هو المثل الأعلى للبشرية ، وهو الانسان الكامل ؛ وعلى كل إنسان يريد أن يصل إلى مرتبة البشرية الكاملة أن يسعى سعيًا روحياً للوصول إلى هذه الدرجة التي لا تتم إلا على يد قطب أو وسيط ، وهذا القطب أو الوسيط هو نفس الوسيط الذي استعمله الصوفي والاسماعيلية والشيعة الاسلامية السرية للوصول إلى واجب الوجود^(٥)

وقد مزج المفيرة وهو أحد الذين اتهموا في دينهم (أحرق عام ٧٣٧ م)^(١) بين فكرة « الانسان المطلق » وبين نظرية العدد والبروج التي ترد في منهج الفيتاغورسيين والنجميين فقال بأن الانسان أكل المخلوقات طراً ، لأن له اثني عشر عضواً يقابل كل عضو من هذه الأعضاء برجاً من البروج ؛ لذلك فالعالم الأكبر اجتمع هنا في العالم الأصغر ، فهو هو هو ، والعالم الأصغر هو نفس العالم الأكبر . وحيث أن آدم هو أبو البشر فهو يمثل الصلة بين العالم الأكبر Markokosmos وبين العالم الأصغر

(١) Max Horten Die philo des Islam p. 105 ff راجع

(٢) راجع المجلة العربية الأتنية Z. Dmer مجلد ٧٩ ص ٢٤٢

(٣) Goldniher k. 42 L راجع

(٤) Tiele Kompend d. rel Gesch 1903 s. 238 راجع

(٥) Max Horten p. 348

(٦) نفس المصدر ص ٢٤٧

وكذلك Goldniher abh. G. G. W. 1906

أجناً Jacob Bekaschiffe abh. Bayr A. W. 1900 47 A. 2

(١) وهو أحد مشاهير التصوف في أوروبا ولد عام ١٤٠١ وتوفى عام ١٤٦٤ راجع عنه ويند ليند في كتابه تاريخ الفلسفة ص ٢٦٧ ، وكذلك Max Horten p. 348

(٢) نفس المصدر

(٣) فيلوف ولد عام ١٦٤٦ وتوفى عام ١٧١٢ وقد تأسست جمعية عرف باسم جمعية لايبنتز للأبحاث . مفر ما برلين

(٤) راجع ديوانه Ost West Diwan وأشعاره

(٥) R. A. Nikelson the Perfect man, in studies in Islam (٥)

mysticism 1921